بمناسبة الذكرى الثالثة

على طه وبيرون

للأستاذ أنور المعداوى

هكذا [1] كان ينظر إلى حياته فيما قبل الثلاثين . لقد كانت تلك الحياة فى رأيه أو رأى شعوره هذرا وتفاهات ، لأنها قد خلت مما يهيج القلب ويؤنس الروح وغدت وهى دموع وزفرات ؛ وجوهر شخصيته كما قلنا لك أنه لم يخلق للقيود وإنما خلق للحرية ، ولم يخلق للدموع وإنما خلق للبسمات .. وما كان أشبهه بالشاعر الإنجليزى « بيرون » فى هذه الناحية النفسية أو فى هذا المجال ؛ لقد كانت الفكرة السائدة عند بعض كتاب التراجم عن هذا الشاعر هى هذه الفكرة المنحرفة حين يقولون : « لقد كانت طبيعة بيرون الحقة أنه إذا حزن وتألم فاض بالشعر قلبه فى سهولة وقوة وعذوبة ، وأنه إذا سعد وهدأت ثورته هدأ الوحى بهدوء نفسه وضعف بضعف ثورته ، وأنه قد ظل على هذا الحال طوال

(١) فصل من الفصول الجديدة فى كتاب أعده المؤلف للطبع ، عن حياة الشاعر وشعره .. أما بداية الحديث هنا فتعلقة بنهاية الفصل السابق حيث ورد هذان البيتان من قصيدة فى « بحيرة كومو » :

شاعر النيل طف بها غنها كل مبتكر
الثلاثون قد مضت فى النفاهات والهذر !

القدسة . حتى هذه الأحقاد التى يجب أن نورثها أبناءنا على الأقل مع العار الذى سنورثهم إياه ، لو تركنا جراحات الوطن الإسلامى تدمى فى كل مكان ، ونحن لا نصنع شيئا

إن فرنسا تمزق جسم الوطن الإسلامى فى تونس والجزائر ومراكش ، وإنجلترا تقوم بدورها فى مواضع أخرى ، وأمريكا من خلفهما تبدو تارة وتتوارى .. هذا ما يجب أن نذكره صباح مساء ، وما يجب أن نلقنه أبناءنا بكرة وعشيا

سيد قطب

حياته فسجلت أيام الشقاء أروع قصائده وأجدرها بالخلود ! »

ولقد صححنا تلك الفكرة المنحرفة فى الصفحة الثالثة والأربعين من كتابنا « نماذج فنية » ، حيث ورد فى معرض السؤال هذا الجواب : « هذه الفكرة تنطبق كل الانطباق على طبيعة شاعر مثل هنريك هاينى وتبعد كل البعد عن طبيعة شاعر مثل لورد بيرون . إن الألم فى حياة الشاعر الإنجليزى لم يكن ألما بالمعنى المفهوم عند الشاعر الألمانى ، ولكنه كان لونا من السخط على الحياة يزول وينقضى حين تفسح الحياة طريقها للفتى المدلل ليمضى إلى غيه وهواه ! وما أكثر ما تنحت الحياة عن طريقه وهيأت له كل ما يصبو إليه من تحرر وانطلاق ، وفى رحاب هذا التحرر كانت تنبعث أغانيه حلوة عميقة صادقة . لقد خلق بيرون وفى دمه طبيعة بلبل لا يجيد التغريد إلا إذا رأى الجو صحوا والسماء صافية ، فإذا امتلأ الجو بالغيوم وتوارى النور خلف حجب الضباب سمعت منه بعض الغناء ، ولكنه الغناء المختنق ينبعث من أوتار خنجرة ساخطة ، ثائرة ، تشكو هذا الظلام الذى لا يتيح لها أن تصدح كما تشاء !

من هذه الكلمات الموجزة تستطيع أن تضع يديك على مفتاح هذه الشخصية التى لاغموض فيها ولا تعقيد . يقول بيرون : لقد هبت من نومى ذات صباح فألفيتنى مشهورا يتردد اسمى على كل لسان . قالها بعد أن دفع بديوان شعره الأول إلى الناشرين فدفعوا به إلى السماء ، وكان ديوانه هذا الذى حقق له أسباب الشهرة والمجد والخلود هو « تشايلد هارولد » ، وإنه فى رأى الفن لخير أعماله الأدبية على الإطلاق ! لقد جادت قريحته الوثابة بهذا الشعر فى لحظات الصفاء ، هناك حيث قضى بيرون فى ربوع الشرق أجمل أيامه وأسعد لياليه : كأس خمر معتقة ، وقلب غادة خفاق ، وذهب يسيل بين يديه ، وزورق يمخر به العباب إلى أثينا وأزمير ومالطة واستانبول ، وهذه هى الحياة .. الحياة التى كانت تفجر الشعر فى أعماقه تفجيرا ، وتهدى إلى عشاق الأدب والفن أروع ألحانه وأعذب أغانيه ، هناك فى « تشايلد هارولد » ! إن الطبائع الفنية معادن : بعضها يتوهج فى ظلال الترف والنعيم ، وبعضها يتأجج

فى رحاب الفاقة والحرمان ، وبعضها يخبو بريقه أو يسطع إذا ما انتقل من حال إلى حال ! »

فى هذه الناحية النفسية تتفق طبيعة شاعرنا المصرى وطبيعة الشاعر الإنجليزى على التحقيق . . كلاهما سخط على الأنام كل السخط ، وعشق اللذة كل العشق ، ووزن أيام الحياة بما فيها من متعة الحس والنفس حيث تقوم الحياة فى رأيه بكل عيد من أعياد الشعور . . تتفق الطبيعتان هنا ويلتقى المزاجان ، ولكن خط السير نحو الغاية المنشودة يختلف عند على طه عنه عند بيرون ، تبعا لاختلاف البيئة والنشأة وأثر الوراثة فى تكوين الشخصية الإنسانية ! لقد كانت المرأة مثلا تشغل حيزا كبيرا من حياة الشاعرين وفنهما على حد سواء . ولقد طاف كلاهما بالجسد الأنثوى ذلك الطواف الذى يطالعك من شعره فى صورته القوية العارمة ، حتى ليخيل إليك أن مفاتن هذا الجسد كانت هى الكوى الشعورية التى نفذ منها إلى تذوق الحياة . . كان شعورهما نحو المرأة هو هذا الشعور ، ولكن شتان فى الإعجاب بها بين نظرة ونظرة وفى الوصول إلى حقيقتها بين طريق وطريق !

لقد انحدر بيرون من صلب أسرة ورث فيها الشذوذ فى النفس والخلق أبناء عن آباء ، حتى لقد خرج إلى الدنيا وفى دمه مزيج من شرور الوراثة وانحراف النشأة . . كان جل همه أن ينشد متعة النفس ولذة الجسد ونزوة العاطفة ، ثم لا يعنيه من دنياه غير اللحظة التى يعيش فيها وتعود عليه بكل ما يشتهيه الفتى الجميل المدلل الذى لا يمد عينيه أبدا إلى الأمام ؛ الفتى الذى لا يتحرج عند جموح الشباب وسطوة الغريزة من أن يحطم فى سبيل شهواته كل ما تعارف عليه المجتمع من حدود وقيود ! كان إذا ماتردى فى هوة الإثم والفسق والفجور سعدت نزواته وسعد فنه وسعد عشاق هذا الفن ومريدوه . . إنها لحظات الصفاء بالنسبة إلى رجل يرى السعادة فى إشباع رغبات الجسد ، ولو تركزت هذه الرغبات الشريرة الجامحة فى شخص « أوجستا » أخته من أبيه ! ومن هذه النزوة المحرمة فى شرع العرف والسماء يتدفق إبداع بيرون فى « عروس أبيدوس » وهى القصة الشعرية التى تصور طبيعة الهوى الآثم بين « زليخا » وأخيها « سليم » أو حقيقة الهوى الآثم بين «أوجستا» و «بيرون» كما نقلتها إلينا أصدق الأخبار والروايات . . صحيح أنه سجل ألمه النبعث من وخز الضمير على ما اقترف من إثم فى بعض شعره ، ولكن الحقيقة التى بقيت لنا من شعره وحياته تؤكد لدارسيه أنه لم يكن يفرغ من آلامه المارة حتى يعود إلى لذاته الدائمة ، فيسهب ويبدع هنا ويوجز ويفتر هناك ؛ يسهب حيث تطول اللذة ويوجز حيث يقصر الألم ، وما الفن إلا انعكاس صادق من الحياة على الشعور !

ولم يكن على طه فى علاقته بالمرأة أو فى نظرته إلى الجسد الأنثوى من هذا الطراز . لقد كان طرازا آخر بلا مراء ، أو صورة أخرى ستعرف على التحقيق ألوانها النفسية فيما يلى هذا الفصل من دراسة تحليلية (٢) . . إن هذا المثال المستخلص من حياة الشاعر الإنجليزى ، قد قصد به الإشارة إلى اختلاف خط السير عند الشاعرين تبعا لاختلاف البيئة والنشأة كما قلت ، أو تبعا لاختلاف أثر الوراثة فى تكوين الشخصية الإنسانية . وتبقى بعد ذلك نقطة الالتقاء بين على طه وبيرون فى زاوية واحدة تحددها المشابهة بين طبيعتين ؛ تلك المشابهة التى تضع بين أيدينا المفتاح الحقيق لجوهر الشخصيتين فى لقاء الحياة ، وهو أن كليهما لم يخلق للألم وإنما خلق للذة ، ولم يخلق للدمعة وإنما خلق للابتسامة ، ولم يخلق للقيد وإنما خلق للتحليق شأن كل طائر طليق !

ولقد عاش على طه فترة من حياته فى ذلك الجو الرومانسى الذى تلوذ فيه النفس بالوحدة وتأوى إلى العزلة وتستشعر قسوة الاغتراب ، وتلك الفترة التى عاشها شاعرنا كانت فى حساب الزمن نصف ماتدر له من أيام الحياة . . ولقد مرت على بيرون من ذلك الجو الرومانسى لحظات ؛ لحظات وإن كانت عابرة إلا أنها عكست على بعض فنه خصائص ذلك الجو كما تبرزها فى الأعم الأغلب أشعار الرومانسيين . لقد عرف على طه فى حياته تلك الرومانسية الوجودية التى استحالت فى شعره الأول إلى رومانسية فنية وكذلك عرفها بيرون ، ولكنهما على اتفاقهما فى هذه

(٢) هذه الدراسة التحليلية المطولة خص بها المؤلف مجلة « الآداب » اللبنانية التى ستصدر فى العدد القريب عن « دار العلم للملايين »

الظاهرة يختلفان فى التعرض لها والتأثر بها بعض الاختلاف ، سواء أكان ذلك فى مجال الشعور أم فى معرض التعبير .. وهنا كما كان هناك ، يلتقى الشاعران فى الغاية ولكنهما يفترقان فى خط السير نحو هذه الغاية حيث يمضى كل منهما فى طريق !

ارجع فى باب « الدراسة الفنية » لشعر على طه إلى قصيدة « الله والشاعر » ، لترى أننا قد سجلنا حول تلك القصيدة هذه الكلمات : « هذه الواقعية النفسية الوجودية التى تسير فيها لفتة الفكر جنباً إلى جنب مع خفقة القلب ، هى التى تطالعنا من قصيدة « الله والشاعر » .. وهى واقعية تمثل القسط المشترك من الحقائق الكبرى المتبادلة تبادلا كونيا بين الله والإنسان ، وهى حقائق أشبه بالرواسب الفكرية والنفسية المتخلفة فى قرار الذهن البشرى منذ أقدم العصور ؛ منذ أن بدأ الركب الإنسانى يفكر فى واقع هذا السير الطويل فى طريق الحياة ، ويناقش علة وجوده وغاية بقائه وما بعد فنائه ، هناك حيث ينتظره الجزاء الحق أو غير الحق ممثلا فى عالمى الثواب والعقاب .. وتقول الجزاء الحق أو غير الحق ، مادامت هناك صيحتان تؤمن إحداها بأن الإنسان لا يملك أمام القوة العليا شيئا من أمر نفسه ولا من أمر دنياه ، وإنما هو يدفع فيندفع ويوجه فيتجه ويسير فيسير ، وأنه تبعا لهذه القدرة المسلوبة والحرية المفقودة لا ينبغى أن يجزى على سيئاته إذا أساء ، فإن جزى عليها فهو جزاء غير عادل ! إيمان بهذا كله تفصح عنه هذه الصيحة التى تقابلها صيحة أخرى عمادها إيمان آخر ، هو أن الإنسان يملك أمام القوة العليا كثيرا من أمر نفسه ومن أمر دنياه ، فهو قابض على الزمام لا يفلته إلا برغبته ، مبصر للطريق لا ينحرف عنه إلا بإرادته ، عليم بالحقائق لا يحيد عنها إلا بمحض هواه ؛ فهو مخير تركت له الحرية فإذا أساء فهمها فعليه أن يتقبل ما أعد له من جزاء ، وإنه لجزاء ينسم بالحق ويتصف بالعدل ويقترن بالإنصاف !

وإذا أنت بحثت عن مكان على طه بين أصحاب الصيحتين الخالدتين فإن مكانه هناك مع الفريق الأول .. هو معهم فى اتفاق النظرة واتجاه الفكرة ولكنه يفترق عنهم فى احتفاظه بإيمانه الذى لا تودى به كل تلك العواصف والأعاصير . إنه يتناول هذه القضية الوجودية الكبرى من زاويتين : الأولى ليدافع عن الكيان الإنسانى أمام سطوة القدر وحكمة القضاء ، مستخدما فى دفاعه منطق الشاعر الفيلسوف الذى يمرض المقدمات عرضا شعريا ترتضيه النفس ليخرج منها بنتائج فلسفية يرتضيها الفكر . والثانية ليعبر عن حيرته البالغة وحيرة القافلة الإنسانية وهى تتخبط فى صحراء الوجود تلتمس الظل الظليل فى رحاب الواحة الإلهية ، فرارا من وطأة القيظ ولفح الهجير ! وهو بعد ذلك متأرجح بين البث والشكاة ، وبين الأنين والحنين ، وبين العذاب المهذب والخضوع العميق .. وهو آخر الأمر معذب لا يدرى أين يستقر ولا إلى أى وجهة يمضى به قدماه : خطوة يأس تقذف به إلى الخلف وخطوة أمل تدفع به إلى الأمام ، ولكنه فى غمرة تلك التيارات النفسية المتباينة ضارع مبتهل لا يشك أبدا فى رحمة الله » !

هذه الأفكار والمشاعر التى طاف حولها عقل شاعرنا وقلبه هى فى حقيقتها أثر من آثار ذلك الجو الرومانسى الذى عاش فيه ؛ وهى نتيجة مباشرة لظروف الوحدة النفسية والعزلة الروحية والانفراد الذاتى كما نعهدها فى حياة الرومانسيين ، هناك حيث يدفع الإنسان دفعا إلى إطالة التأمل فيما حوله من حقائق الكون وغاية الوجود ومصير الركب الإنسانى بعد انتهاء الحياة ؛ ومثل هذا التأمل لا بد أن يفضى بصاحبه آخر الأمر إلى التعرض لموقفه وموقف الإنسانية جمعاء إزاء الخالق العظيم . هكذا فعل على طه فى قصيدة « الله والشاعر » وهكذا فعل بيرون فى مسرحية « قابيل » .. إن شخصية قابيل فى تلك المسرحية الشعرية ما هى إلا إحدى شخصيات بيرون التى كان يصور معالمها بصدق وأصالة ، ليعبر بها عن حالة خاصة من حالات نفسه وهى معرضة لهزات الوجود ! اتفاق والتقاء ، ولكن خط السير هنا مختلف كما قلت بعض الاختلاف عن خط السير هناك ، لأن هذه الشخصية « البيرونية » فى مسرحية « قابيل » ثائرة على الخالق ساخطة على القدر متمردة على السماء ، تريد أن تبرئ الإنسان من كل شر وفساد عرفتهما الأرض ، محاولة أن ترد

كليهما إلى تلك القوة العليا التي تسيطر على الكون وتوجهه إلى مصير معلوم . تحاول هذا ثم تدفعها الثورة العاصفة والعصيان الجامح إلى حد التخيل بأنها « إبليس جديد » ، جاء لينتقم للانسانية الظلومة من خالقها الذى لاتلقى منه غير الظلم والعذاب .. وهى بعد ذلك تنتظر على يديه ألوانا من الحساب والعقاب !

ثورة عند بيرون ينقصها التهذيب ويعوزها التبصر وتتشح بثوب التجديف ، وحيرة عند على طه لا تبلغ هذا المدى من الهور والتنكر والاندفاع ، لأنها حيرة لا تنتهى بصاحبها إلى التمرد ورفع راية العصيان ، وإنما تنتهى به إلى راحة نفسية مصدرها الخضوع والإذعان !

ولقد قلنا فى سياق الحديث عن قصيدة « الله والشاعر » إن تلك القصيدة تمثل الواقعية النفسية خير تمثيل ، فكيف يتفق هذا مع القول بأنها من نتاج ذلك الجو الرومانسى الذى قضى فيه على طه أول العهد بالشباب ؟ كيف تجتمع « واقعية » و « رومانسية » فى أثر واحد من آثار الفن دون أن يكون هناك شئ من التعارض والتناقض والشذوذ ، مصدره أن موازين النقد فى أدب الغرب قد وضعت حدودا فنية « فاصلة » بين هذين اللونين من ألوان الأدب ؟ سؤال مقصود لأن الجواب عنه كذلك مقصود ، ومن وراء السؤال والجواب نهدف إلى الكشف عن حقيقة المشكلة كما ينطق بها الواقع الملموس !

هل قرأت « آلام فرتر » لجيته ، و « رفائيل » للامرتين ، و « رينيه » لشاتوبريان ، و « أدولف » لكونستان ؟ هذه القصص الأربع يضعها النقاد فى « خانة » القصة الرومانسية وهم يقسمون ألوان الأدب ومذاهبه تبعا لما يتسم به هذا الأدب من خصائص ومميزات ، يردونها عادة إلى شتى العوامل النفسية التى طبع بها العصر وتركت آثارها فى كتابه ، بعد اتفاقهم على أن الأدب نتاج مجتمعه وثمرة بيئته ومرآة جيله التى تنعكس على صفحتها معالم ذلك الجيل . وتبعا لهذا التقسيم الفنى الذى انتهى إليه النقد عرف الناس أن هناك أدبا رومانسيا وآخر واقعيا فى عرف التسمية المذهبية ، وإن لم يستطع النقد فى « واقع الأمر » أن يفصل فصلا تاما بين خصائص كل لون من ألوان الأدب وهو فى خانته الفنية . . لم يستطع النقد أن يوفق إلى تلك التفرقة الكاملة لأنه نسى أن بيئة الأدب فى عصر من العصور لا يمكن أن تكون « خالصة » لطابع نفسى بعينه ، يلقى ظله الخاص على وجه ذلك الأدب دون أن يفسح مكانا لظل سواه ! لو فطنت موازين النقد إلى تلك الحقيقة لما وجدت بدا من التعديل فى وضع الحدود الأخيرة للمصطلحات الفنية وتقدير خط السير لاتجاهات الأدب تقديرا نهائيا لا رجعة فيه ! إنك قد تقرأ قصة تمثل اتجاها رومانسيا فى عرف النقاد وهى لا تخلو فى بعض مواقفها من اتجاه واقعى هنا أو هناك ، ثم لا تجد فى هذا شيئا من الغرابة إذا ما وضعت نصب عينيك هذه الحقيقة المادية ، وهى أن عصرا من العصور ينتج فنا من فنون الأدب ، لا يمكن أن يتسم بسمة شعورية واحدة تترك آثارها التعبيرية الواحدة التى تندرج فى جملتها تحت عنوان ! هل نريد بذلك أن نلغى تلك المصطلحات الفنية التى اتفق عليها نقاد الأدب محددين بها اتجاهاته ومراميه ؟ كلا .. وإنما نريد أن نصحح وضعا هو على التحقيق يحتاج إلى تصحيح ، عندما نقرر مطمئنين أن تلك التحديدات المذهبية يعوزها شئ من التعديل ، مرده أننا إذا قلنا عن طابع عصر من العصور إنه رومانسى فيجب أن يفهم أننا نعنى الطابع الغالب لا الطابع العام ، ونقصد المظهر البارز لا المظهر الشامل ، ونشير إلى السمات الرئيسية لا السمات الكلية ؛ وفى ضوء هذا التحديد يجب أن ينظر إلى ما كتبناه عن « طابع العصر » الذى قضى فيه على طه أول العهد بالشباب !

ونعود مرة أخرى إلى تلك القصص الرومانسية الأربع فى ضوء هذا التحديد ؛ نعود إليها لنقرر أنها توضع أيضا فى خانة الواقعية دون أن يكون هناك شئ من التناقض والشذوذ . . هى « رومانسية » إذا نسبت إلى الجو النفسى القاتم الذى كتبت فيه ، أو إلى الخصائص الفنية التى اصطلح عليها النقاد . وهى «واقعية» إذا نسبت إلى واقع الحياة التى كان يحياها أصحابها فى ذلك الحين ؛ الحياة الذاتية التى تسجل حقيقتهم الإنسانية والتى قد

تنطبق على غيرهم من الناس . أليس هذا هو واقعهم النفسى فى فترة من فترات العمر سجلتها فى تلك القصص سطور وكلمات ؟ هو كذلك بلا جدال ، وإنه لواقع عصر فى صورته الغالبة لا فى صورته العامة تبعا لما سبق من تحديد .. وفى هذا كله ما يفسر لك انتفاء التناقض فى الجمع بين كلتين : هما الواقعيـة النفسية والرومانسية الوجودية !

وفى معرض المقارنة بين شاعرنا المصرى والشاعر الإنجليزى نقدم هـذا السؤال : هـل تأثر على طه فى شعره بذلك الاتجاه الرومانسى الذى نلمحه عند بعض الشعراء الغربيين ومن بينهم بيرون ؟ سؤال مقصود أيضا لأن الجواب المنتظر عنه مقصود ؛ حين نفتح الصفحة الرابعة والستين بعد المائة والصفحة التى تليها من الجزء الثالث من « حديث الأربعاء » للدكتور طه حسين فنجد هذه الكلمات : « ومن الكتاب من يقول إن شاعرنا تأثر بأبى العلاء ثم يضيق بهذا التأثر . ولست أدرى أتأثر شاعرنا بأبى العلاء حقا أم تأثر ببيرون أم تأثر بهما جميعا وبقوم آخرين غيرهما أم لم يتأثر بأحد، وإنما لقى من لقى من الشعراء مصادفة وعلى غير قصد ولا عمد . وأحس أنا فى قصيدة أخرى أسماها « غرفة الشاعر » روحا « لموسيه » ، ولـكنى لا أدرى أهو روح الذى قرأ فتأثر أم هو روح الذى أحس فتألم ، فشكا فلقى موسيه فى هذا كله أو فى بعضه . ولست أتردد فى الرضا عن هـذه القصيدة والحب لها والإعجاب بها . ولست أكره أن تشاركنى فى هـذا الرضا وأن تشاطرنى هـذا الحب والإعجاب ، فاقرأ معى هـذه القصيدة وقف معى عنـد بعض أبياتها وقفات قصارا . . . هذه الصور المتتابعة المختلفة حسان كلها ، ولـكنها بعيدة إلى حـد ما عن المألوف من حياة شعرائنا الشرقيين ، إلا أن يكونوا مترفين قد ألفوا حياة الغرب وكلفوا بالسهاد فى غرفة يضطرب فيها نور ضئيل شاحب ، وتغنى فيها بقايا الجذوة فى الوقد ، وكل هذا يألفه الغربيون ، وهو يذكر بموسيـه تذكيرا قويا . وبعض النـاس يعيب شاعرنا « بتغريب » الشعر ، أما أنا فأحمد له هـذا النوع وأراه تشريفا للشعر العربى ورياضة للذوق الشرقى وللغة العربية على أن يسيغا مالم يتعودا أن يسيغاه من قبل . وإذا كان لى أن آخذ الشاعر بشىء فهو ماقدمته من أن الأمر يختلط فى شعره على القارئ فلا يدرى ألقى زملاءه الغربيين والشرقيين مصادفة أم عن تعمد وسعى » !

إن السؤال مقصود هنا لأن اسم الشاعر الإنجليزى بيرون قد ورد فى سياق الحديث الذى دار به الدكتور حول قصيدة « الله والشاعر » ، أما آثار بيرون الفنيـة التى لا « يدرى » الدكتور هل لقيه فيها شاعرنا المصرى مصادفة أم عن تعمد وسعى! أما تلك الآثار فلم يشر إليها بكلمة واحـدة تفصح عن حقيقتها حين يطلب إلى الدارسين مثل هذا الإفصاح . . ولا ندرى نحن هل كان يقصد مسرحية « قابيل » التى ذكرناها عند المقارنة بين الشاعرين أم كان يطلق القول إطلاقا بغير تحديد ! إن غاية مايقال هنا أننا قد تعرضنا لقصيدة على طه ومسرحية بيرون ، وانتهينا إلى أنهما متفقتان فى الهدف ولـكنهما تفترقان فى خط السير حتى ليـذهب كل من الشاعرين فى طريق . وما أبعد الشقة بينهما فى حساب النقد الذى يلمس الفارق بين فـكرتين قد اختلفت حولها القيم الشعورية والتعبيرية !

لقد أدار الدكتور المفتاح مرة أخرى فى ثقب الباب ولم يفتح ؛ أما ذلك المفتاح فلم يكن غير تلك العبارة التى ساقها وهو يفترض وجود شىء من التجاوب الفنى بين على طه وموسيه . . ترى أهو روح الذى قرأ فتأثر ، أم هو روح الذى أحس فتألم ، فشكا ، فلقى موسيه فى هـذا كله أو فى بعضه ؟ إن الدكتور هنـا أيضا لا « يدرى » ولا يستطيع أن يقطع برأى لأنه لا يملك الدليـل . . والدليل الذى يعوز الدارسين كما قلنا ونحن نتحدث عن هـذه القصيدة فى باب الدراسة المذهبية مرجعه إلى عدم الإحاطة بظروف الحياة التى تنتج الفن ، وتضع بين أيديهم أداة الربط بين شخصية الـكاتب وما كتب أو بين شخصية الشاعر وما نظم وتحول بينهم وبين السؤال الذى يبقى بلا جواب ! لو رجع الدكتور إلى حياة شاعرنا فيما قبل الثلاثين كما استعرضناها فى الفصلين السابقين ، لأدرك أن الشعور بالحزن فى « غرفة الشاعر » أو الشعور بالحيرة

فى « الله والشاعر » كان طبيعيا لا أثر فيه للتقليد والمحاكاة ، وأن ذلك الروح الذى أحسه فى هاتين القصيدتين كان روح الشاعر الذى تحير فى صدق فالتقى فى حيرته عن غير قصد مع بيرون ، وتألم فى صدق فالتقى فى ألمه عن غير عمد مع موسيه

. . إن التشابه بين إنتاج الرومانسيين أمر لا غرابة فيه ولا موضع للدهشة وافتراض الفروض ، لأن الأجواء النفسية التى حلقوا فيها بالشاعر وجالوا بالخواطر كانت متشابهة أو كان التوافق بينها جد قريب ؛ ومن هنا لا يجوز لنا أن نسأل عن تلك العلاقات التأثرية بين أصحاب الآثار الرومانسية ، إلا إذا استطعنا أن نثبت وجود شئ من تلك العلاقات بين جيته فى « آلام فرتر » ولا مرتين فى « رفائيل » ، وكونستان فى « أدولف » ، وشاتوبريان فى « رينيه » !

ولقد قلنا إن مشكلة التفكير الإنسانى فى المصير وما يتعلق بها من بحث حول « شرعية » الثواب والعقاب مشكلة قديمة ، ومما لا شك فيه أنها قد سبقت بقدمها أفكار هؤلاء الذين تعرض لهم الدكتور فى حديثه وخص منهم بالذكر شاعرين هما بيرون وأبو العلاء . . وإذن فلا مبرر للتناول عما إذا كان على طه قد تأثر بهذين الشاعرين فى قصيدة « الله والشاعر » لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى سؤال !

إن المشكلة قديمة وجديدة فى وقت واحد لأنها مشكلة الأمس واليوم والغد القريب والبعيد ، مادامت هناك فترات قلق تمر بحياة الإنسانية المفكرة الشاعرة وتدفعها إلى إطالة التفكير فيما وراء هذه الحياة . . هل نحن مسيرون ؟ هل نحن مخيرون ؟ هل نحن أصحاب إرادة فيما نقدم عليه من عمل أم أننا مجرد أدوات بين يدى قوة خفية توجهها كيف تشاء ؟ أسئلة تعرضت لها الأجيال الماضية وتتعرض لها الأجيال الحاضرة وسوف تتعرض لها الأجيال المقبلة مابقى هناك فكر يبحث فى المصير ومايرتبط به من جزاء ! وإذن فلا عجب إذا ما التقت أفكار الشعراء الثلاثة حول هذا المعنى الكبير فى بعض ما خلفوا من آثار أدبية ؛ آثار تتفق فى جوهر المشكلة ولكنها تفترق فى سبب التجربة الشعورية فى القالب الفنى تبعا لاختلاف المعدن النفسى وما يقترن به من تفاوت فى معدن التعبير . . . إنه اتفاق فى جوهر الشكلة كما قلنا وعامل الإثارة واحد لا اختلاف عليه ، ونعنى به القلق الذى يهز النفوس والعقول ويدفعها دفعا إلى محاولة الغوص فى أعماق المجهول . قلق عند بيرون وقلق عند على طه وقلق عند أبى العلاء ، ولكن مصدر هذه الظاهرة النفسية يختلف عند الشاعر الأول عنه عند الشاعرين الأخيرين ، حين تفسره عند بيرون بأنه فراغ الحياة من العطف وحده وحين تفسره عند صاحبيه بأنه فراغ الحياة من العطف والعاطفة .. لقد عاش بيرون فى مجتمع حرم فيه عطف الناس فثار حينا على الله والناس ، وعاش أبو العلاء كل حياته وهو محروم من نعمة الشعور بالعطف الإنسانى وبالعاطفة الأنثوية ، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى على طه ولكن فى فترة محدودة من فترات الحياة ، ومثل هذا الحرمان كفيل بأن يهز سكينة النفوس والعقول !

أنور المعداوى

فى ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

تباعا فى ثلاثين جزءا بعدد أجزاء القرآن

ظهر الجزءان الأول والثانى

ثمن الجزء ١٢ قرشا

يطلب من دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه ومن المكتبات